جماليات اللون في شعر باكثير

د.محمد صالح علاية
أستاذ الأدب الأموي المساعد في كلية التربية صبر
جامعة عدن

الملخص:

يحاول هذا البحث أن يتلمس دور اللون في بناء النّص الشّعري عند باكثير، إذ خُلص إلى أنّ اللون يُعدُّ عنصراً مهماً من عناصر البناء الفني، بما يحمل من دلالات ذات علاقة مباشرة بالرؤية الفنية, ففي معظم الأحيان لا يرِد اللون فيما وصف له, بل يكشف عن إحساس الشاعر, ويدخل في نسج الصورة الفنية. واتخذ البحث طريقه إلى التطبيق من خلال ديواني الشاعر.

المقدمة:

يُعدّ باكثير من أدباء العرب المعاصرين, لما له من مكانة عريقة في عالم المسرح والرواية والشعر, لذا فقد تُوّج شاعرنا عدداً من الألقاب لعلّ أهمها : (أمير شعراء حضرموت) و (كبير شعراء الجنوب), فقد طرق شعره كثيراً من الجوانب الإنسانية والدينية والوجدانية والسياسية, وكانت بصمات صدقه واضحة البيان, فشعره مرآة يعكس التزامه الديني والإسلامي[1].

لقد جاءت فكرة هذه الدراسة نابعة من الحاجة إلى دراسة مفردات اللون وتجلّياتها ودلالاتها في البناء الشعري عند باكثير, ولعلّ هذه الدراسة تكون لبنة تضاف إلى الدراسات السابقة.

فاللون من أهم ظواهر الطبيعة وأجملها, ومن أهم العناصر التي تشّكل الصورة الفنية, لما يشتمل عليه من الدلالات الفنية والنفسية والاجتماعية والرمزية. لذلك ينبغي دراسة اللون في الشعر من خلال ربطه بسياق النص الشعري, فالسياق الشعري هو الذي يحدد وظيفته وفاعليته.

وقد ألفينا أكثر الألوان وروداً في ديواني الشاعر هو اللون الأبيض وموحياته.

اللون الأبيض:

[1]- ينظر: علي أحمد باكثير, ديوان (أزهار الربى في شعر الصبًا) تحقيق محمد أبو بكر حميد , دار المناهل , بيروت ط1, 1987م ص 9.

اللون الأبيض محبب إلى النفس, لاسيما إذا اتصفت به المرأة, فهو سمة جمالية لها؛ لكنّ الشاعر لا يكتفي بهذا اللون في المرأة المحببة له؛ بل يضفي عليها ألواناً أخرى تزيدها جمالاً وحسناً, فهي بيضاء في حلّة حمراء, قارناً هذه الصورة اللونية بصورة البدر, وقد تجلّى بعد غروب الشمس المحمرّة إذ نراه يقول:

وفتـــــاة جميلـــــة بيضـــــاء قـــد تبـــدّتْ في حلّـــةٍ حمـــراء

فهـــي بـــدرٌ بـــدا عُقيـــب غـــروبِ الـــ شمسِ وسـط احمـرار لـون السماء[2]

نلحظ أنّ (بيضاء, وحمراء) في البيت الأول جاءت على صيغة وزنية واحدة, مما أحال البيت عموماً إلى إيقاع داخلي شجي كانت الألوان هي سرّ التشكيل النغمي المنسجم إيقاعياً.

ويعبّر باكثير باللون الأبيض عن الجدّة والصّرامة والحزم, نجد هذا المعنى في مدحه للسّيد الهمام محمد صلاح الدين, كقوله:

كـــالزَّهَرِ الضـــاحكِ أخلاقـــه وعلمـــــه كـــــالنَّهَرِ الـــــدائم

وكالحيـــا الـــوسميِّ آدابـــهُ وعزمُـــه كـــالأبيضِ الصـــارم[3]

ومن الواضح أنّ البيتين يكتنزان تناغماً صوتياً من خلال تكرار حرف الجر (الكاف) على المستوى الأفقي والعمودي , فضلاً عن الامتداد الصوتي في حرف (الألف) من كلمتي (الدائم, الصارم) فيمتد الصوت عالياً في ترسيخ صفات الشهامة والنجابة في الممدوح.

وقد يصف الشاعر الثّورة باللون الأبيض دلالة على سمو مبادئها, فهي الأمل المنتظر الذي ينير للناس حنادس الظلمات, وتضع عنهم الجور والظلم والأغلال التي كانت عليهم, كقوله:

والثورةُ البيضاءُ هَمُّنا على عَواثير الوطنْ[4]

ويوظّف باكثير اللون الأبيض في وصف المحامد والمناقب التي سطّرها الإنسان في حياته, حيث تكون نبراساً ينير الطريق للآخرين, يقول راثياً المنصور بن غالب الكثيري:

---

[2]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص73.
[3]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص 216.
[4]- علي أحمد باكثير , ديوان (سحر عدن وفخر اليمن) تحقيق محمد أبو بكر حميد , مكتبة المعرفة , ط1 , جدة , 2008م , ص 45.

وشـــيّد صـــرحَ العلـــمِ فـــالعلمُ وحـــده تـــــراهُ لأدواءِ الجهالـــــةِ شـــــافيا
وذا قلـــــمُ التـــــاريخِ مصـــــغٍ بســـــمعه يؤمـــل أن تملـــوا عليـــه المعاليـــا
فيكتبهـــا بـــــالنّور في صـــــحفِ العُلـــــى أســـاطر بيضـــاً للخلـــود بواقيـــا[5]

ومن موحيات اللون الأبيض (الأغر)[6] يصف بها باكثير وجه الحبيبة, وقد ارتبطت بالسواد, كقوله:

فتـــــــــاةٌ بـــــــــدتْ لنـــــــــا ســـــــــافراً وجههـــــا الأغـــــــر
فانْثنـــــــــتْ تســـــــــدلُ الظـــــــــلا مَ علـــــى ذلـــــك القمـــــر[7]

وبهذا نجد باكثير يتكئ في الصورة اللونية على مصادر الضوء: كالقمر والبدر, وهي مصادر كونية اعتمدها حقيقة للبرهنة على صفاء البشرة وبياضها وعلو شأنها من خلال ما توحي به من بياض وبهاء وإشراق , ونراه في موضع آخر يقول:

هـــــــي الجـــــــلاءُ لهمـــــــي وبهجـــــــتي وســـــــروري
كأنّهـــــــا بـــــــدرُ تمّ في ظلـــــــمِ الـــــــدّيجور[8]

على أنّ المتتبع للصورتين يجد اختلافاً في تكثيف اللون, ففي اللوحة الأولى يسود اللون الأسود (الشعر الطويل) على الوجه الأبيض, فلا نرى إلا نور الحبيبة يسطع من ذاك الفرع الأسود, في حين أنّ اللوحة الثانية يتلاشى فيها اللون الأسود أمام نور الحبيبة التي تجلّت.

وترد لفظة(الأغر) كثيراً في شعره في مقام المدح, كقوله:

حيـــثُ الهـــوى رَيّانـــةٌ جَنباتُـــهُ والأصـــــدقاءُ الغُـــــرُّ والنُّـــــدماءُ[9]

وألفينا في ديوانه لفظة (الأزهر)[10], وقد رمز بها باكثير لعلو شأن الممدوح, وصفاء مبادئه السامية المستقاة من نور نبيه صلى الله عليه وسلم, يقول مادحاً الملك عبد العزيز آل سعود:

---

[5]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص282 .
[6]- الأغر: الأبيض من كل شيء , ابن منظور , اللسان 11/ 30.
[7]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص126 .
[8]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص122.
[9]- _ ديوان سحر عدن وفخر اليمن , 120

(عبدَالعزيزِ) الفارس المغوار والملك المظفَّرْ

جئتَ الحجازَ فصُنتَه ُممن يعيثُ ويفجرْ

وأقمتَ فيه الدِّينَ من أوهام سطّرها مؤجَّرْ

فبدا هُدى(المختارِ) وضاءً كنورِ البدرِ أزهرْ [11]

ومن الملاحظ أنّ باكثير لا يكتفي بمفردة واحدة للدلالة على إشراق هدى المختار(صلى الله عليه وسلم), بل استعمل مفردات مثل: وضاء, النور, البدر, وهنا لا يطلق باكثير صفات الألوان على وجه الحقيقة بقدر ما يرمز بها إلى دلالات مثل: السّمو والنقاء والطهر.

وهنا ومن موحيات البياض لفظة (الأديم)[12] يصف بها الشاعر قصر الحبيبة, الصافي جنباته ,العالي شرفاته:

بصرتُ بقصرٍ ينهبُ الجوَ طولُه فسيح الفنا صافي الأديم صقيل[13]

ويكشف الصباح ولونه الأبيض عند باكثير عن تفتح الحياة بعد الظلام, وإيذاناً بالأمل والإشراق, فنجد باكثير يسطّر نشيده الخالد عندما تحرّر الجنوب اليمني من الاستعمار:

يا دولةَ الجنوبْ يا بلْسَمَ الجراحْ
في ظُلمةِ الخطوب أشرقتِ كالصباح[14]

[10]– الأزهر: الحسن والبياض, ابن منظور, اللسان 69/7.
[11]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن , ص 85.
[12]– اللسان: البياض الواضح , 73/1.
[13]– ديوان أزهار الربى في شعر الصِّبا , ص 135.
[14]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن , ص168 .

وينقل باكثير دلالة الصباح إلى جو المأساوية والمرارة والألم, باكتشاف قتلى وصرعى:

وتفلّـــــــقَ الإصـــــــباحُ عـــــــن قتلـــى وصـــرعى في (عســـيرْ)
هـــــذا يـــــئنُّ مـــــنَ الجـــــرا ح وذاك موصـــــولُ الـــــزّفيرْ
وعلـــــــى رباهـــــــا رُبّ حُـــــــرٍّ يلفـــظ الـــنّفَسَ الأخـــيرْ[15]

ويأخذ اللون الأبيض عند باكثير البعد الديني, ويتمثل ذلك في الدفاع عن العقيدة السلفية النقية, وعدم تعييرها بالوهابية, فاختار لها لون اللبن:

والمصلحون إذا ما ذَكّروا اتُّهموا من مـاجن عـزل أو شـارب ثمل
يُعيَّـــرون (بوهابيةٍ) خَلُصـــتْ أنقى من اللبنِ السّلسالِ والعسلِ[16]

اللون الأحمر:

ويأتي اللون الأحمر تعبيراً عن صفات الجمال والافتتان والإثارة, كما في قوله:

أغارتْ على صبري فأفنتْ جنوده فتاةٌ قد استولتْ على القلبِ والفكرِ
أحسُّ كأنَّ القلبَ موطئ نعلها إذا ما مشت تختال في الحللِ الحمرِ
ألا قـاتلَ اللهُ الغواني تركنني سليبـــاً بـلا عقلٍ قتيلاً بلا وترِ[17]

كما يدل اللون الأحمر على معنى الانهزامية والانتكاس أمام قوى الحق والثبات, لا سيما في الصراع الدامي الذي وقع بين الملك عبد العزيز آل سعود وأحد مناوئيه (ابن رفادة):

ما عَنّ (لابن رفادةٍ)هل شاقَهُ تاجٌ ومِنبرْ
أمْ ضاقَ ذرعاً بالحياة فَخَارَ وِرْدَ الموتِ أحمرْ [18]

ووصف الشاعر ورد الموت باللون الأحمر ليس من اللونية, إنّما تأكيد للمعنى المراد إبرازه, وهو شدة الموت وشناعته.

وقد يربط الشاعر بين اللون الأحمر والأخضر دالاً على معنى السرور والحبور, فضلاً عن البهجة والرخاء التي تتجسد في دلالة اللون الأخضر, فالنعمة الوارفة حلّت على (سيئون) بقدوم عالمها السيد (محمد السقاف) من الحج.

---

[15]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن , ص133 .
[16]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن , ص22 .
[17]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص ,189, 190 .
[18]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن , ص 82 .

واحســـي صـــبوحَ الأنـــسِ مـــن خمـــــر السّـــــرورِ الأحمـــــرِ
لمْ تفرحـــــــي (بمحمـــــــد) يومـــــــا إذا لم تكـــــــبري
وتمـــــايلي لعـــــب الجنـــــا ئـــــبِ بالثمـــــامِ الأخضـــــرِ[19]

ووصف باكثير البنان المخضب باللون الأحمر, وهي صفة ليست دائمة في المرأة, وإنّما تستخدمها المرأة لتمنح نفسها جمالاً:

عرضـوا علـيّ البسـرَ أحمـر قانيـا بـــإزاء أصـــفر فـــاقعٍ بســـامِ
قـــالوا تفضّـــل أيّ نـــوعٍ تشـــتهي فأجبتُهم : عَنَم الحبيب مرامي[20]

فهو يطرب بهذا اللونِ الجمالي في المرأة, ويرغب عن طعامه من دون أن يبيّن مشاعر الحبيبة تجاهه , خلافاً لـ(بشار بن برد) الذي استهوته ذات البنان المخضب, وسحّت الدموع عليه, ولم يؤثر بكاؤها فيه , يقول بشا:

ومخضّـــبٍ رخـــص البنـــا نِ بكـــى علـــيَّ ومـــا بكيتُـــه [21]

وقد يأتي اللون الأحمر متناصاً مع بيت لشاعر آخر, يقول باكثير:

وعلـــى الحمـــراءِ بـــابٌ دقَّـــهُ بيـــدٍ ســـالتْ بمســـفوحٍ هَـــدَرْ[22]

وهذا المعنى يتقاطع تناصياً مع قول أمير الشعراء (أحمد شوقي) في نكبة دمشق, بقوله:

وللحريـــةِ الحمـــراء بـــابٌ بكـــلِّ يـــدٍ مضـــرجةٍ يُـــدّقُ [23]

و وُصِفت (الحرية) باللون الأحمر دلالة على كثرة سفك الدماء, فالحرية لا تنال بالهتافات العالية أو الشعارات البراقة, بل تنال بالتضحية وحب الموت, وقول الشاعر:

---

[19]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص 192.
[20]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا ص140.
[21]– بشار بن برد , الديوان , تحقيق مهدي محمد ناصر الدين , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1, 1991م , ص208.
[22]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن ,ص118 .
[23]– أحمد شوقي , الشوقيات , دار العودة , بيروت , ط1 , م1, 74/2.

(باب دقه) إيحاء بالاستجابة للمناضلين, وفي قوله: (بيد سالت بمسفوح) إيحاء بالاعتزاز والتكريم لهذه اليد المناضلة, فضلاً عن اللون والصوت والحركة بما يمنح الصورة حيوية تُظهِر براعة الشاعر التصويرية في رسم لوحة فنية.

ويتأثر باكثير بأشعار الوليد بن يزيد, فإذا قال الخليع:

علِّلاني واسقياني ... من شرابٍ أصْبهاني
من شراب الشيخ كسرى ... أو شراب القيروان
إنَّ في الكأسِ لمسكا ... أو بكفّي من سقاني
أو لقد غُودِرَ فيها ... حين صُبَّت في الدِّنان[24]

جاء باكثير ليقول:

غنياني تطربا ... بأطاريب الأغاني
واسقياني خمرة حمـ ... ـراء مثل الأرجوان
خمرة من عهد (نو) ... تتراءى في الدّنان
إنّ قلبي لمعنيّ ... بهوى البيضِ الحسان
وبـ(سيئون) فتاةٌ ... ثغرُها كالأقحوان
خدها ورد وثديا ... صدرها رمانتان[25]

فذكر باكثير لون الخمر الأرجواني, وهذه الخمرة ليست عاديةٍ, بل عُتّقت في الدّنان من زمن نوح, وقد أثارت أشواقه تجاه محبوبته, فخلع عليها ألواناً من الجمال, فهي من البيض الحسان, وثغرها كالأقحوان, وخدّها ورد, وثدياها رمانتان.

ويسقط باكثير الموروث الخمري على عادات وتقاليد مجتمعه (أهل حضرموت) فنجد إدمانه للشاي يوازي تماماً إدمان شرب الخمر[26], فيصف لنا كؤوس الشاي ذات اللون الأحمر, وقد حفّت جنباتها باللون الأخضر, فإذا كان أبو نواس حين يشرب من الكأس, فكأنّما يقبّل حبيبته التي يزهر وجهها كالنجم أو البدر:

[24]– أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني, تحقيق سمير جابر دار الفكر بيروت , ط2, 153/9.
[25]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا ص143.
[26]– ينظر: ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا, ص35 .

إذا عــبّ فيهــا شــاربُ القــوم خلتــهُ يقبّــلُ في داجٍ مــن الليــل كوكبــا[27]

فإنّ باكثير حين يشرب الشاي من الكأس, فكأنّما يقبّل خدود الحسان المحمرة, فينجلي همه:

واقــذفْ شــياطينَ الهمــومِ بــأكؤسٍ تــنقضُ مــن (بــراد) شــاي معلــمِ
مخضــرةٌ جنباتــهُ فاعجــب لــه مــن جنــةٍ خضــراء فــوق جهــنم
شــاي يفــوز مــن احتســاه بلثمــة مــن كــلّ خــدّ في الحســانِ ومبســم [28]

ونرى ملمحاً من حديث اللون بقوله:

شــكتْ عينــاه مــن رمــد فقلنــا لكثــرةِ مــا أراقَ دمَ العبــادِ
أيشــكو خنجــرٌ طعــنَ البرايــا لأنَّ دمــاً علــى عينيــه بــادي [29]

والعين التي تشتكي هنا هي عينِ المحبوبة, وليست عين الشاعر, ويدلل الشاعر على أنّ حمرة العينين التي تمنحها جمالاً, إنّما هي من دماء الضحايا الذين أحبوها وقتلتهم بدلاً من أن تطفئ نار الجوى في صدورهم, وهذه الأبيات تتناص مع قول ابن الرومي:

قــالوا اشــتكت عينــه فقلــتُ لهــم مــن كثــرةِ القتــلِ مسّــها الوَصَــبُ
حمرتُهــا مــن دمــاءِ مــن قتلــتْ والــدمُ في النّصــل شــاهدٌ عَجَــبُ[30]

وقد يوظف باكثير الدم الأحمر للدلالة على التضحية والتفاني في سبيل الحق:

تلــك الــدماءُ اليعربيــة ــةُ أُهرِقَــتْ فــوق الصــخورْ
ســالتْ علــى الشــفراتِ ينــ ضــحُ مــن حواشــيها العــبيرْ [31]

[27]– أبو نواس ,الديوان, خمريات أبي نواس, تحقيق علي نجيب عطوي , دار مكتبة الهلال, بيروت , ط1, 1986م, ص44.
[28]– ديوان أزهار الربى في شعر الصِّبا, ص223 .
[29]– نفسه , ص286 .
[30]– ابن الرومي, الديوان, تحقيق حسين نصار, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1981م, 346/1.
[31]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن ,ص133 .

فلون الدم لا يقف أثره عند الرؤية فقط, بل يتعدى ذلك إلى حاسة الشم, دلالة على كرامة المقاتلين.

ومن موحيات اللون الأحمر ما يشير إلى معنى الوفاء والإخلاص لمحبوبته, فعلى الرغم من تقادم الزمان وموت الغرام, فإنَّ الشاعر لم ينس محبوبته وظل يبكيها بالدمع القاني:

مـــاتَ الغـــرامُ وقـــد بكيتـــه ... ورثيتـــه مـــا قـــد رثيتـــه
كفنتُـــــه ودفنتُـــــه ... وبـــدمعيَ القـــاني ســـقيته
وأتـــى الزمـــانُ يصـــورني ... عـــن ذكـــره حتـــى ســـلوته
يـــا ليـــت شـــعري كيـــف عـــا ... د إلـــي الحيـــاة اليـــوم ميتـــه[32]

لق باكثير بجارية تعلوها حمرة, كأنّها الياقوت والمرجان، وقد كشفت عن وجه أبيض, وثغر كأنه درر, فوقف شاعرنا حيال ذلك مسلوب العقل والفكر حين هزّت قوام جسدها؛ لتلفت قلب الشاعر نحوها فيكسوها حلل الشعر:

مـــاذا تريـــدُ بهـــزِّ القـــدِّ جاريـــة ... كأنّمـــا هـــي مرجـــانٌ ويـــاقوت
في وجههـــا قمـــرٌ في ثغرهـــا درٌ ... وفي اللحـــاظِ يجيـــد الســـحر هـــاروت
كأنّهـــا إذ رأتـــني شـــاعراً طمعـــتْ ... شـــأن الكواعـــب أن يعلـــو لهـــا صـــيت[33]

توقّد مشاعر الشاعر نحو حبيبته قد أحال على توقد صوتي نابع من التقسيم الموسيقي, وتكرار التنوين في(قمرٌ, درٌ), وهذا ما نلمسه في البيت الثاني.

اللون الأسود:

أما اللون الأسود فقد عبّر به باكثير عن القوة وعنفوان الشباب ونضارته, ثم يقابل هذه الصورة بالصورة الضدية (الشيب) التي توحي بالعجز والهرم:

[32]– ينظر: عبد المطلب جبر, الوعي النقدي وحدود التجديد في شعر علي باكثير, مجلة التواصل، جامعة عدن , العدد السابع , يناير , 2002م .
[33]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبا , ص 118 .

واغنمـــوا غـــضَّ الشّـــبابِ وســـوا د شـــعورِ قبـــلَ أن يبـــدو لهـــب
قبـــل أن يشـــتعلَ الشـــيبُ بهـــا كاشـتعالِ النّـار في جـزل الحطـب[34]

وهذا المعنى استقاه الشاعر من القرآن الكريم: ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا))[35]، وقد أوحى لنا تناص الشاعر بالوهن والضعف واستلاب غرة الشباب، كما عكس لنا أيضاً الحالة الشعورية والتوتر النفسي الذي يصيب الإنسان من جراء دخوله في مرحلة الصراع والقلق من اللا منتظر واللا متوقع الذي يتجسد في حالة الخوف من المشيب المنذر بقرب الرحيل إلى عالم غريب[36].

ومن موحيات اللون الأسود الليل وظلمته, وقد جاء بدلالات مختلفة حسب السياق المرتبط به, فثمة دلالة سوداوية ناتجة عن إحساس الشاعر بالمرارة والضيم من واقع العرب المتناحر والوقوف ضد من جعلهم الله خلفاء في أرضه بوادر لهزيمة ونكسة أخرى من سلسلة الهزائم التاريخية المؤلمة, يقول باكثير:

يا من لليل العُربِ طالَ فهل له فجرٌ فَيُنظرْ
أفَكلما نهضَ الفتى منهم بأمَّتهِ تعثّرْ
(عبدُالعزيزِ) بسيفه سيعزّزُ الحرمَ المطهّرْ[37]

ويأخذ الليل مدلولاً آخر, فيدل على الرّفعة والمثابرة في تحصيل العلم, وهذا دأب العظماء الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع, فلا تكتحل عيونهم بالنوم إلا بعد مدارسة العلم:

لا ينـــالُ العلـــم إلا بالنّصـــبْ ومقاســـاة عنـــاء وتعـــبْ
وامتطـــاء الجّـــد في تحصـــيله وســهاد الليـلِ مـع صـدق الطلـبْ[38]

[34]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبا , ص 51 .
[35]– آية 4, مريم 19 .
[36]– محمود درابسة ، مفاهيم في الشعرية دراسات في النقد العربي القديم ، مؤسسة حمادة ، الأردن, ط1 ، 2003م ، صـ 132.
[37]– ديوان سحر عدن وفخر اليمن , ص 83,82 .
[38]– ديوان أزهار الرّبى في شعر الصبّا , ص137 .

أما ليالي الوصل عند باكثير فهي ليالٍ مشرقة لكنّها قصيرة, تتمنى الحبيبة أن يطول (الليل) حتى تنعم بوصل الحبيب والأنس معه, ويصبح النهار مصدر حزن وكآبة وبكاء:

فقلتُ لها آن الوداعُ فأجهشتْ ... وقالتْ رعاكَ اللهُ بعدَ قليلِ
أما تبصرين الليلَ قد مرّ جُلُّهُ ... ولم يبقَ من ظلماه غير فضولِ
فقالتْ قصيرٌ ليلنا آه ماله ... وما كان ليلي قبل غير طويل[39]

نلحظ أنّ تكرار (الليل) في البيت الثالث نجم عنه تناغم موسيقي نابع من ترديد اللون بمدلولين مغايرين, فالدال الأول منوط بالسعادة التي غمرت الحبيبة حال لقائها بالمحبوب, في حين الدال الآخر يتعلّق بالألم والشكوى والأنين من فقدان الحبيب, وهو تقابل يفضي إلى تلاحم بنية البيت في ظل السياق اللغوي لينتج الدلالة العامة, الليل قصير بلقاء الأحبة, طويل بفراقهما. وتقمّص باكثير لشخصية عمر بن أبي ربيعة واضحة الأثر في الأبيات, فهو المعشوق لا العاشق, وهي التي تسحّ الدّموع عليه وتتوسل إليه.

وقد يثير الليل بظلمته وسكونه أشواق الشاعر نحو وطنه (سيئون), فيتذكر ذكرياته الجميلة, وأيامه السعيدة, فينفر النوم من جفونه:

إلى (سيوون) من (منقلي) سلام ... يُفَضُّ به عن المسك الختام[40]
و أستكري فيغزو النومَ عيني ... جيوشُ الفكرِ أيسرُها لهام
لطالَ عليّ هذا الليل حتّى ... كأنّ نجومه داءٌ عقام[41]

ويفتن الشاعر بالوجه ذي الخال فقد ملكت المحبوبة عليه نفسه, ولم يكتف بهذا الوصف بل كساها ألوان الحسن, فمحبوبته كشجر البان في القوام, لها شفة لعساء, والشفة اللعساء محببة لدى الشعراء:

تملّك حسنُ ذات الخالِ نفسي ... وفيها كم قطفتُ زهورَ أنسِ
وكم غازلتُ فيها من غزال ... بأثواب البها والحسن مكسى

[39]– ديوان أزهار الرّبى في شعر الصّبا , ص 51.
[40]– منقلي: قريب من سورابايا بأندونيسيا.
[41]– ديوان أزهار الرّبى في شعر الصّبا, ص 102.

كغصنِ البانِ ليناً واعتدالاً يفوقُ اللاسَ في لينِ المجسِّ
مليحُ الدّلِ محبوب التثني مشوبٌ ريقهُ بطلاً ودبس
وكم عانقتُ فيها من غوانٍ شبيهاتِ المها خدّ ولَعس[42]

اللون الأخضر:

واقترن اللون الأخضر بالطبيعة الخضراء التي حباها الله اليمن, على أنّ أهمية هذا اللون تبرز من خلال ارتباطه غالباً بالأمل والتفاؤل والعطاء والجمال والبهجة[43], يقول باكثير:

اليمنُ الخضراءُ أُمُنّا أكرِمْ بأُمِّنا اليَمنْ [44]

ونجد اللون الأخضر أيضاً في قوله:

وشهدتَ تلك القبةَ الـ خضراء ذات المرمرِ[45]

والمتأمل في دلالة اللون الأخضر هنا يرى أنّه انحرف عن حقيقته, فأصبح يشير إلى القداسة والطهر والنقاء بارتباطه بقبة النبي (صلى الله عليه وسلم).

اللون الأصفر:

ويأتي اللون الأصفر معبّراً عن حال العاشق وأثر الحب فيه, وما يقاسيه من الآلام والأحزان نتيجة ما يكون من فراق وهجر, كقوله:

والبكا والنُحول والسُّهد والصُفـ رة هذي علائمُ العشاقِ[46]

وربط الشاعر اللون الأصفر بحالة العاشق لما يوحي به من العلة والسّقم والعذاب, هي إيحاءات تتواءم مع حالة العاشق[47].

---

[42]- ديوان أزهار الرّبى في شعر الصّبا, 127.
[43]- ينظر: ظاهر محمد هزّاع, اللون ودلالاته في الشعر, في الشعر الأردني نموذجاً, دار الحامد, عمان, ط1, 2008م, ص23 .
[44]- ديوان سحر عدن وفخر اليمن ,ص162 .
[45]- ديوان أزهار الرّبى في شعر الصّبا , ص195.
[46]- نفسه , ص59 .
[47]- ينظر: أحمد مقبل المنصوري, اللون في الشعر الأندلسي, وزارة والثقافة والسياحة, صنعاء, ط1, 2004م, ص 118.

اللون الأزرق:

ويربط باكثير دلالة اللون الأزرق بعالم الصفاء والشفافية, وما يتصل بعالم السماء:

من فوقهنّ بساط حسن أزرق[48] و حكى الغمامُ عمائماً منقوشة

اللون والطبيعة:

ينقلنا باكثير إلى إحساسه بالعالم الخارجي حيث الطبيعة الزاهية, فيصف لنا الرياض وهي متعانقة الأغصان, قد كست أرضها الدرر وجرى الماء الصافي في حصبائها, وشدت الطير فيها أحسن الأنغام, أما ثمارها فهي آسرة المنظر ما بين أصفر فاقع, وأبيض ناصح , وأحمر قان.

قفْ في الرياض الزُّهرِ باطمئنانِ وانظرْ هناك تعانق الأغصانِ
وامشِ الهوينا في حدائقها التي حُفَّتْ بمثلِ الدُّرِ والعِيقانِ
تلك الحدائقُ ماؤها عذبٌ وصا في اللون والحصباءُ من مرجانِ
والطيرُ في أرجائها تتجاذب الـ أرواحَ بالنغماتِ و الألحانِ
أشجارُها فتحتْ جفون زهورها ودنتْ قطوفُ ثمارها للجانِي
ما بين أصفر فاقع في جنبِ أبـ يضَ ناصحٍ بإزاء أحمر قان[49]

لهذا نجد باكثير يقف على الرّصد اللوني ولا يتعداه إلى سواه, هادفاً من رصده ذلك إجلاء الصورة اللونية جلاءً بارزاً للعين مستعيناً بأية وسيلة فنية في سبيل ذلك.

ومن مظاهر الكون الساحرة صورة البدر في السماء متألقاً, وقد أُحيطت به النجوم, ولم يكن ليفوت على الشاعر أن يمتّع ناظريه بهذا المنظر الجمالي البديع الذي تراءى له القمر كأنّه ملك متربع على عرشه محاط بوزرائه:

انظر إلى بدر السما متألقاً حفتْ به شهبُ النّجومِ السّطع
فكأنّها وزراؤه وكأنّه ملكٌ على كرسيِّهِ متربع[50]

[48]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص 91.
[49]- ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا, ص66.
[50]- نفسه, ص 90 .

ويحن الشاعر لموطنه ويكن له الحب والإجلال , فإذا ما لاح البرق من تلقاء (سعاد) هيّج مشاعره نحو مرابع الصبا:

ويشـــجيني ومـــيض الـــبرق وهنـــاً إذا مـــا لاح مـــن تلقـــا ســـعاد
يقـــابلني بضـــحكةِ ذي شمـــات فألحظـــهُ بعـــيني ذي وداد[51]

فلون البرق الذي لاح للشاعر ليس لوناً عادياً يدرك بحاسة العين, إنّما يدرك بحاسة السمع, وله حديث ذو شجون مع الشاعر حين قابله باستهزاء وسخرية؛ لكن الشاعر لم يعبأ به, بل لحظه بودٍ وحنان, ومن صور الجمال هنا أنّ التراسل بين اللون والصوت بيّن الشاعر من خلاله حبه لبلاده رغم تجهم الآخرين له, وخطوب الزمان عليه.

ويصف باكثير في موضع آخر الطبيعة الزاهرة رابطاً بين ألوانها وما في نفسه التائقة للجمال, فالأزهار المتفتحة عن أبيض يقق وأحمر قاني ما هي إلا لون الحسان, ووشوشة البهار ما هي إلا غيرته من جمال الورود:

الـــروضُ أصـــبحَ للأحبـــةِ ملتقـــى أو مـــا رأيـــتَ تعـــانقَ الأغصـــان
وتشـــقق الأكمـــام في أزهارهـــا عـــن أبـــيض يقـــقٍ وأحمـــر قـــاني
فكـــأنّهن الغيـــد في شـــتى الحلـــي يـــرفلن مـــن مثنـــى ومـــن وجـــدان
غـــار البهـــار بـــه لحســـن وروده فتكـــاد تســـمعُ زفـــرة الغـــيران[52]

ولعل الشاعر يعبر عن غيرة البهار بالحساد الذين وقفوا في طريقه ووضعوا العقبات والإحن في الوصول إلى مبتغاه, ويبدو أنّ الطبيعة هنا تتجاوب مع نفسية باكثير فتمدّه بألوانها التي يستطيع من خلالها أن يثبت ما في نفسه من ألم وشكوى.

ويصور الشاعر الجلنار بحمرته بالنار, ولولا وجود الندى لأفنى الأزهار:

والجلنـــار يكـــادُ تلـــهبُ نـــاره لـــولا النّـــدى لأتـــى علـــى الأفنـــان[53]

كما وقف أمام شقائق النعمان واصفاً لونه بالدم :

وشـــقائق النعمـــان تقطـــر مـــن دمٍ فكأنّهـــا تبكـــي علـــى النّعمـــان[54]

---

[51]– نفسه, ص 121.
[52]– ديوان أزهار الربى في شعر الصبّا , ص 225.
[53]– نفسه , ص 225.
[54]– نفسه , ص 225.

الخاتمة والنتائج:

1- تبين في نهاية البحث أن عدداً من الألوان وردت في شعر باكثير, ولم يكن ورودها اعتباطياً, بل لها دلالات معينة وأغراض خاصة تنوعت وتعددت وفق سياقات وقعت فيها.

2- لا يذكر باكثير اللون بما وصف له, وإنّما يحرف دلالته بما يتواكب مع سياق النص, وقد نتج عن ذلك دلالات جمالية ونفسية ورمزية وسياسية.

3- لا يكتفي الشاعر بالتلويح اللوني في سياق النص, وإنما يمزج أحياناً بين اللون والصوت, تقويةً للمعنى وترسيخاً له, وهذا ما يعرف بتراسل الحواس.

4- لمسنا أنّ باكثير يجاري السابقين من الشعراء في مجال التصوير اللوني, وهذا يعكس مدى ثرائه الثقافي واطلاعه على التراث العربي.

5- لم يقف باكثير حيال ألوان الطبيعية واصفاً لها, بل استخدمها ملاذاً لآلامه وأحزانه وفرحه, وفي بعض الأحيان تمهيداً لغرضه.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , تحقيق سمير جابر , دار الفكر , بيروت , ط2.
- أبو نواس, الديوان , خمريات أبي نواس, تحقيق علي نجيب عطوي , دار مكتبة الهلال, بيروت, ط1, 1986م.
- ابن الرومي , الديوان , تحقيق حسين نصار, الهيئة المصرية العامة للكتاب , 1981م.
- أحمد شوقي , الشوقيات , دار العودة , بيروت , ط1.
- أحمد مقبل المنصوري , اللّون في الشعر الأندلسي , وزارة الثقافة والسياحة , صنعاء , ط1, 2004م.
- بشار بن برد , الديوان , تحقيق مهدي محمد ناصر الدين , دار الكتب العلمية , بيروت, ط1, 1991م.
- جمال الدين محمد مكرم ابن منظور , لسان العرب , دار صادر , بيروت, ط5, 2005م.
- ظاهر محمد هزّاع , اللون ودلالاته في الشعر , في الشعر الأردني نموذجاً , دار الحامد , عمان , ط1 , 2008م.
- عبد المطلب جبر, الوعي النقدي وحدود التجديد في شعر علي باكثير, مجلة التواصل، جامعة عدن , العدد السابع , يناير , 2002م.
- علي أحمد باكثير , ديوان (أزهار الربى في شعر الصِّبا) تحقيق محمد أبو بكر حميد, دار المناهل , بيروت ط1, 1987م.
- علي أحمد باكثير , ديوان (سحر عدن وفخر اليمن) تحقيق د , محمد أبو بكر حميد ,مكتبة المعرفة , ط1 , جدة , 2008م.
- محمود درابسة ، مفاهيم في الشعرية دراسات في النقد العربي القديم ، مؤسسة حمادة، الأردن , ط1 ، 2003م.